

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٦ - سورة الأحقاف

قال المهاجمي : سميت بها لأن مكانها من حيث قبوله سرعة تأثير ريح العذاب فيه ، كاللذيل على إنذاره . ففيه إشعار على أن إنذارات القرآن كاللذائل على أنفسهم . ثم في قصتهم اتساق الإنذار إلى صيرورة الرجوع خوفاً . ففيه إشعار بأن إنذارات القرآن مما يخاف منها صيرورة ما يرجوه الجهال مخوفاً عليهم . وذلك من أعظم مقاصد القرآن . انتهى .

وهي مكية . واستثنى بعضهم منها (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ...)^(١) الآيتين . وقوله^(٢) : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...) الآية . (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ...)^(٣) الأربع الآيات . (فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ ...)^(٤) الآية ، فهي مدنية - كذا قيل . وتقدم في طليعة سورة الجاثية تحقيق ذلك . وآيها خمس وثلاثون .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٠] .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] .

(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٣٥] .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

[٣] (مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ،

وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ)

« حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » أى : الحكمة وإقامة العدل فى الخلق . « وَأَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : وبتقدير أجل معين لكل منها ، يفنيه إذا هو بلغه ، وهو يوم القيامة . « وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا » أى : من هول ذلك اليوم « مُّعْرِضُونَ » أى : لا يؤمنون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ، أُنْثَوْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أُنْثِرْ

مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى : من الأوثان التى تعبدونها . « أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ » أى أرونى ما تأثير ما تعبدونه فى شىء أرضى بالاستقلال ، أو شىء سماوى بالشركة ، حتى تستحق العبادة . « أُنْثَوْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا » تبكىتم لهم بتعجزهم عن الإتيان بسند نقلى ، بعد تبكىتمهم بالتعجز

عن الإتيان بسند عقليّ . أى : اثبتوني بكتاب إلهيّ من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، دالّ على صحة دينكم . « أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ » أى : أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ، شاهدة باستحقاقهم للعبادة . « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى : فى دعواكم ، فإنها لا تكاد تصح ، ما لم يقم عليها برهان عقليّ ، أو سلطان نقليّ . وحيث لم يقم عليها شىء منهما ، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل ، تبين بطلانها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)

« وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ » أى : دعاءه لعجزه عنها « إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ » أى : لأنهم إما جمادات ، وإما مسخرون مشغولون بأحوالهم . و (الغفلة) مجاز عن عدم الفائدة فيها . أو هو تغليب لمن يتصور منه الغفلة على غيره .

لطيفة :

قال الناصر : فى قوله (إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) نكتة حسنة . وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة . ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم فى القيامة أيضا لا يستجيبون لهم . فالوجه - والله أعلم - أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها ، وإن وافق ما قبلها ، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى ، حتى كأن الحالتين ، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما ، كالشىء وضده . وذلك أن الحالة الأولى التى جعلت غايتها القيامة ، لا تريد على عدم الاستجابة . والحالة الثانية التى فى القيامة ، زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم . فهو من وادى ما تقدم آنفاً

في سورة الزخرف في قوله ^(١) (بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ) انتهى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)

« وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ » أى : جمعوا يوم القيامة لموقف الحساب « كَانُوا » أى : آلهتهم
« لَهُمْ أَعْدَاءُ » أى : لتبرئتهم منهم . قال الشهاب : أعداء استعارة ، أو مجاز مرسل للضار .
« وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » قال ابن جرير ^(٢) : أى وكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا ،
بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا ، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا ،
تبرأنا إليك منهم ، يا ربنا ! أى : فالتكذيب بلسان المقال ، قصداً إلى بيان أن معبودهم فى
الحقيقة الشياطين وأهوائهم .

وقال القاسانى : كانوا أعداء ، لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم ،
لا تكون إلا لغرض نقصانى . وكذا استعباد الموالى لخدمتهم . فإذا ارتفعت الأغراض ،
وزالت العلل والأسباب ، كانوا لهم أعداء ، وأنكروا عبادتهم . يقولون : ما خدمتمونا ،
ولكن خدمتم أنفسكم . كما قيل فى تفسير قوله ^(٣) (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ) . انتهى .

وقيل : الضمير فى (كَانُوا) فى الموضعين ، للعابدين ، لثلا يلزم التفكيك . وفيه نظر :
لأنه خلاف المتبادر من السياق ، إذ هو لبيان حال الآلهة معهم ، لا عكسه ، ولأن كفرهم

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٩ و ٣٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

حينئذ إنكار لعبادتهم . وتسميته كفرةً ، خلاف الظاهر أيضاً . وقد أوضح ذلك آية^(١)
(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

«وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ» أى : بادعوه بالجدود أول ما سمعوه ، من غير إجابة فكر ، ولا إعمال روية . واللام
في (لِلْحَقِّ) لام الأجل ، متعلقة بـ (قَالَ) . وقيل : بمعنى الباء ، متعلقة بـ (كَفَرُوا) ،
وعدى الكفر باللام ، حملاً على نقيضه ، وهو الإيمان ، فإنه يمدى بها نحو^(٢) (أَنُؤْمِنُ لَكَ)
القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، هُوَ أَعْلَمُ
بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا يَبْنِي وَيَنْكُم ، وَهُوَ الْعَفْوَ الرَّحِيمُ)
«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أى : لاتقدرون
أن تدفعوا عني سوءاً ، إن أصابني به . و (أم) - على ما قالوا - منقطعة مقدرة بـ (بل) الإضرابية
وهزة الاستفهام ، المتجاوز به عن الإنكار والتعجب . ووجه كون الافتراء أشنع من السحر ،
حتى أضرب عنه ، أن الكذب خصوصاً على الله متفق على قبحه ، حتى ترى كل أحد يشمئز
من نسبته إليه بخلاف السحر ، فإنه ، وإن قبح ، فليس بهذه المرتبة ، حتى تكاد تعد
معرفة من السمات المرغوبة .

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .

وقال الفاسر : هذا الإضراب في بابه مثل الغاية التي قدمتها آتفاً في بابها ، فإنه انتقل إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل لزيادته عليه ، مع ما تقدمه مما ينقص عنه ، منزلة المتنافيين ، كالنفي والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر . وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات ، أشد وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر . فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه . انتهى .

« هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفَيِّضُونَ فِيهِ » أى : تخوضون في حقه من أنه سحر أو إفك « كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » أى : يشهد بالصدق بما يؤيدني به من آياته وصدق مواعيده « وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى : لمن راجع مفك الكفر وتاب وآمن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ » أى : ما كنت أول رسل الله التي أرسلها إلى خلقه . قد كان من قبلى له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم ، فلم تستفكروا بعثتى ، وتستبعدون رسالتى ، كقوله ^(١) (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ) و (البدع) كالبديع ، بمعنى الجديد المبتدأ . قال ابن جرير ^(٢) : ومن البدع قول عدى بن زيد ^(٣) :
فَلَا أَنَا بِدْعٍ مِّنْ حَوَادِثَ تَعْتَرَىٰ رَجُلًا عَرَّتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسَىٰ وَأَسْعَدِ

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) هذا هو البيت السابع عشر من المجمعرة ومطلعا :

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبِدٍ نَعَمٌ . وَرَمَاكَ الشَّوْقُ قَبْلَ التَّجَلُّدِ

تعتري : أى تتعلق . عرت : أى علق . بؤسى جمع بؤس . أسعد جمع سعد .

ومن البديع قول الأحوص (١) :

فَخَرَّتْ فَأَنْتَمَتْ فَقُلْتُ : ذَرِينِي لَيْسَ جَهْلٌ أُتَيْتُهُ بِيَدَيْهِ
« وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ » قال أبو السعود : أى : أى شئ يصيبنا فيما يستقبل
من الزمان ، من أفعاله تعالى ، وماذا يقدر لنا من قضاياه . وعن الحسن رضى الله عنه : ما أدري
ما يصير إليه أمرى ، وأمركم في الدنيا . وقيل : يجوز أن يكون المنفى هو الدراية المفصلة .
والأظهر أن (ما) عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية ،
دون ما سيقع في الآخرة ، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة ، وقد ورد به الوحي الناطق
بتفاصيل ما يفعل بالجانبين . انتهى .

وهذا الأظهر يقرب من قول الحسن . وهو ماعول عليه ابن جرير . قال ابن كثير : بل
لا يجوز غيره . كيف ؟ وهو عليه السلام جازم بأنه صائر إلى الجنة ، هو ومن اتبعه بإحسان . وأما في
الدنيا ، فلم يدرك ما كان يؤول إليه أمره ، وأمر مشرك قريش ، أيؤمنون ، أم يكفرون فيعذبون
فيستأصلون بكفرهم . فأما الحديث الذي رواه الإمام (٢) أحمد عن أم العلاء ، وكانت بايعت

(١) كان الأحوص يوما عند سَكِينَةَ . فأَذَن مؤذِّن . فلما قال (أشهد أن لا إله إلا الله ،
أشهد أن محمداً رسول الله) نخرت سَكِينَةُ بما سمعت . فقال الأحوص :
نخرت فَأَنْتَمَتْ

فَأَنَا ابن الذي حمت لَحْمَهُ الدَّبْرُ . رُ ، قَتِيلَ اللَّحْيَانِ يوم الرجيع .
غَسَلْتُ خَالِي الملائكة الأبْر . رار ميتا طُوبَى له من صريع .
قال أبو زيد : وقد ، لعمرى نخر بفخر ، لو على غير سَكِينَةَ ، نخر به ! وبأبي سَكِينَةَ عليه السلام ،
حمت أباهُ الدَّبْرُ ، وغسلت خاله الملائكة .

(الأغانى ج ٤ ص ٢٣٤ ، طبعة الدار) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

النبي ﷺ ، قالت : (طار لنا في السكني ، حين اقترعت الأنصار على سكني المهاجرين ، عثمان ابن مظعون رضي الله عنه ، فاشتكى عثمان عندنا ، فرفضناه . حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه ، فدخل علينا رسول الله ﷺ . فقلت : رحمة الله عليك ، أبا السائب ! شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنني لأرجو له الخير . والله ! ما أدرى - وأنا رسول الله - ما يفعل بي ! قالت : فقلت : والله ! لا أركى أحداً بعده أبداً وأحزنني ذلك . فممت ، فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيماً تجرى ، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : ذاك عمله) فقد انفرد بإخراجه البخاري^(١) دون مسلم ، وفي لفظ له : ما أدرى - وأنا رسول الله ﷺ - ما يفعل به . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : فأحزنني ذلك . وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة ، إلا الذي نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسرافقة وعبد الله بن عمرو بن حرام (والدجابر) والقراء السبعين الذين قتلوا بيتر معونة وزيد بن حارثة وجمفر وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم . انتهى كلام ابن كثير .

وقال المهايي : (وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) أي : فيما لم يوح إلى . والوحي يبعث الأمور لا يستلزم العلم بالباقي . ولم يكن لي أن أضم إلى الوحي كذباً من عندي . « إِنْ أَتَيْتُمْ » أي : في تقرير الأمور الغيبية « إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أي : منذر عقاب الله على كفركم به ، أبان لكم إنذاره وأبان لكم دعاءه إلى مافيه صلاحكم وسعادتكم . القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(١) أخرجه في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣ - باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج

في كفته ، حديث رقم ٦٦٦ .

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» أى : القرآن منزلاً من لدنه ، على . لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون «وَكَفَرْتُمْ بِهِ» وشهد شاهد من بني إسرائيل «أى : ممن الواقفين على أسرار الوحي بما أوتوا من التوراة «عَلَى مِثْلِهِ» أى مثل القرآن ، وهو مافى التوراة من الأحكام المصدقة للقرآن من الإيمان بالله وحده ، وهو ما يتبعه ، كقوله تعالى (١) «وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ» وقوله (٢) «إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى» أو على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى . أو على مثل شهادة القرآن ، فجعل شهادته على أنه من عند الله ، شهادة على مثل شهادة القرآن ، لأنه بإعجازه كأنه يشهد لنفسه بأنه من عند الله ، أو (المثل) صلة (و الفاء) فى قوله تعالى «فَأَمَّنْ» للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن ، لما علم أنه من جنس الوحي الناطق بالحق «وَأَسْتَكْبَرْتُمْ» أى : عن الإيمان به بعد هذه الشهادة .

وقوله : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» استئناف مشعر بأن كفرهم ، لضلالتهم المسبب عن ظلمهم . ودليل على الجواب المحذوف . مثل : (ألسن ظالمين) أو (فن أضل منكم) وذلك عدم الهداية مما ينبت عن الضلال قطعاً ، فيكون كقوله فى الآية الأخرى (٣) «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ» من أضل ممن هو فى شقاق بعيد . قال أبو السعود : ووصفهم بالظلم للإشعار بعلّة الحكم ، فإن تركه تعالى لهدايتهم ، لظلمهم .

تنبيه :

روى أن الشاهد هو عبد الله بن سلام ، فتكون الآية مدنية مستثناة من السورة ، كما ذكره الكواشى ، لأن إسلامه كان بالمدينة . وأجيب : بأن لا حاجة للاستثناء ، وأن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع ، كقوله (٤) «وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ» . ويرشحه أن (شَهِدَ) معطوف على الشرط الذى يصير به الماضى مستقبلاً ، فلا ضير فى شهادة الشاهد

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٩٦] . (٢) [٨٧ / الأعلى / ١٨ و ١٩] .

(٣) [٤٩ / فصلت / ٥٢] . (٤) [٧ / الأعراف / ٤٨] .

بعد نزولها ، ويكون تفسيره به بياناً للواقع ، لا على أنه مراد بخصوصه منها . هذا ما حققوه .
ويقرب مما نذكره كثيراً من المراد من سبب النزول في مثل هذا ، وأنه استشهد على ما يتناوله
اللفظ الكريم .

ثم أشار إلى حكاية نوع من أباطيلهم في التنزيل والمؤمنين به ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ،
وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيْقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ » أى : الإيمان ، أو ما أتى به الرسول
« خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » أى : لو كان من عند الله لكنا أولى به ، كسائر الخيرات من المال والجاه .
قال ابن كثير : يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضى الله عنهم ، وأشباههم وأضرابهم
من المستضعفين والعبيد والإماء . وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله
وجاهة ، وله بهم عناية . وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأً بيناً ، كما قال
تعالى ^(١) (وَكَذَلِكَ أَفْتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا)
أى : يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ، ولهذا قالوا ^(٢) (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)
وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم :
هو بدعة . لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد
بادروا إليها . انتهى . « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ » أى : بالقرآن « فَمَسِيْقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ »
أى : كذب قديم ، كما قالوا (أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ) . قال ابن كثير : فينتقصون القرآن وأهله ،
وهذا هو الكبر الذى قال ^(٣) رسول الله ﷺ : بطل الحق وغمط الناس .

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

(٣) أخرجه الترمذى في : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٦١ - باب ما جاء في الكبر =

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ)

«وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً» أى : قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه ، ورحمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه . «وَهَذَا» أى الذى يقولون فيه ما يقولون «كِتَابٌ مُصَدِّقٌ» أى : لكتاب موسى من غير تعلم من أنزل عليه إياه «لِسَانًا عَرَبِيًّا» أى : بيناً واضحاً . وفى تقييد الكتاب بذلك ، مع أن عربيته أمر معلوم الدلالة ، على أن تصديقه لها باتحاد معناه معها ، وهى غير عربية . ومثله لا يكون ممن يعرف ذلك اللسان بغير وحى من الله تعالى . «لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[١٤] (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ» أى : لا غيره . «ثُمَّ اسْتَقَمُوا» أى : على العمل الصالح . قال القاضى : أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم ، والاستقامة فى الأمور ، التى هى منتهى العمل . و (ثُمَّ) للدلالة على تأخير رتبة العمل ، وتوقف اعتباره على التوحيد «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» أى : من هول يوم القيامة «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» أى : لا يحزنهم الفزع الأكبر . «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» .

= ونصه : عن عبد الله ، عن النبي ﷺ قال : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة

من كبر . ولا يدخل النار (يعنى من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان) .

قال ، فقال له رجل : إنه يعجبني أن يكون ثوبى حسناً ونعلى حسنة .

قال : إن الله يحب الجبال . ولكن الكبر من بطر الحقّ وغمص الناس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا » وقرئ (حُسْنًا) وهذا تمهيد لمن عقهما وعصاهما في الإيمان المذكور ، في قوله ^(١) تعالى (وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُي ...) الآية .
« حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » أى : ذات كُرْهٍ ، أو حملاً ذا كُرْهٍ ، وهو المشقة . « وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ » أى : حمله جنيناً في بطنها ، وفطامه من الرضاع « ثَلَاثُونَ شَهْرًا » أى : تمضى عليها بمعاينة المشاق ، ومقاساة الشدائد لأجله ، مما يوجب للأم مزيد العناية ، وأكيد الرعاية . لا يقال : بقي ثلاثة أشهر ، لأن أمد الرضاع حولان ، لأننا نقول : إن الحولين أمدٌ من أراد تمام الأجل ، وإلا فأصله أقل منهما ، كما ينبىء عنه قوله ^(٢) تعالى (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) ولئن سلم أنهما أمدها ، فيكون في الآية اكتفاء بالعقود ، وحذف الكسور ، جرياً على عرفهم في ذلك ، كما ذكروه في حديث أنس في وفاته ﷺ على رأس ستين سنة ، مع أن الصحيح أنه توفي عن ثلاث وستين ، كما بين في شرح الشبائل . قالوا : إن الراوى للأولى اقتصر فيها على العقود وترك الكسور ، وسرّ ذلك هو القصد إلى ذكر المهم ، وما يكتفى به فيما سيق له الكلام ، لا ضبط الحساب ، وتدقيق الأعداد .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

قال ابن كثير : وقد استدلل على رضى الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ^(١) (وَفِصْلُهُ وَفِي عَامَيْنِ) وقوله تبارك وتعالى ^(٢) (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِتَهُمَ الرِّضَاعَةَ) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم .

« حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ » أى : استحکم قوته وعقله « وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي » أى : ألهمنى « أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي » أى : بالهداية للتوحيد ، والعمل بطاعتك ، وغير ذلك . « وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي » أى : واجعل الصلاح ساريًا فى ذريتي ، راسخًا فيهم « إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ » أى : من ذنوبى التى سلفت منى « وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى : المستسلمين لأمرك ونهيك ، المتقادين لحكمك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

« أُولَٰئِكَ » أى الموصوفون بالتوبة والاستقامة « الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا » أى : من الصالحات فنجازيهم عليها « وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ » أى : فلا نعاقبهم عليها لتوبتهم « فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ » أى : معدودين فى زميرتهم ثواباً ومقاماً .
قال الشهاب : والظاهر أنه من قبيل ^(٣) (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الْهَادِينَ) ليدل على المبالغة بعلو منزلتهم فيها ، إذ قولك (فلان من العلماء) أبلغ من قولك (عالم) . ولم يبينوه ههنا ، ومن لم يتنبه لهذا قال (فى) بمعنى (مع) . انتهى .

(١) [٣١ / لقمان / لقمان / ١٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٢٠] .

« وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » أى : وعدهم تعالى هذا الوعد ، وعده الحق في الدنيا ، وهو موفيه لهم في الآخرة ، كما قال ^(١) (وَمَا أَلْتَمَسْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) . ثم بين تعالى نعت من عصى ما وصى به من الإحسان لوالديه ، من كل ولد عاق كافر ، وما له في ماله ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفِ لَكُمْ مَا أَتَعِدَا نَبِيَّ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفْغِيَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ » أى حين دَعَوَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالِاسْتِقَامَةِ « أَفِ لَكُمْ مَا أَتَعِدَا نَبِيَّ أَنْ أُخْرَجَ » أى : هذه الدعوة « أَتَعِدَا نَبِيَّ أَنْ أُخْرَجَ » أى : أبعث من قبري بعد فنائي « وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي » أى : هلكت ولم يرجع أحد منهم « وَهُمَا يَسْتَفْغِيَانِ اللَّهَ » أى : يطلبان الغياث بالله منه . والمراد إنكار قوله ، واستمظامه ، كأنهما لجأ إلى الله في دفعه ، كما يقال (العياذ بالله !) أو المعنى : يطلبان أن يغيثه الله بالتوفيق ، حتى يرجع عما هو عليه « وَيْلَكَ ءَامِنْ » أى : صدق بوعد الله ، وأقر أنك مبعوث بعد موتك . و (وَيْلَكَ) في الأصل معناه الدعاء بالهلاك ، فأقيم مقام الحث على فعل أو ترك ، للإيحاء إلى أن مرتكبه حقيق بأن يطلب له الهلاك ، فإذا سمع ذلك ترك ما هو فيه ، وأخذ ما ينتجعه « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى : إن وعده تعالى خلقه ، بأنه يبعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب ، لمجازاتهم بأعمالهم ، حق لا شك فيه « فَيَقُولُ » أى : مجيباً لوالديه ، وراداً عليهما نصيحتهما ، وتكذيباً بوعد الله « مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى : أباطيلهم التي كتبوها .

(١) [٥٢ / الطور / ٢١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى : الإلهى ، وهو العذاب « فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ » أى : الذين كذبوا رسل الله ، وعتوا عن أمره « إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ » أى : بديهم الهدى بالضلال ، والباقي بالفانى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلُوا ، وَلِيُؤْفِيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَلِكُلِّ » أى من الفريقين « دَرَجَةٍ عَمَلُوا » أى : مراتب من جزاء ما عملوا من صالح وسيئ « وَلِيُؤْفِيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ » أى جزاءها « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى بنقص ثواب ، ولا زيادة عقاب .

تنبيه :

روى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في ابن لآبى بكر الصديق . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : نزلت في عبد الرحمن بن أبى بكر ، قال لأبويه - وهما أبو بكر وأم رومان ، وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم ، فكانا يأمرانه بالإسلام ، فكان يرد عليهما ويكذبهما ويقول : فأين فلان ، وأين فلان ؟ يعنى مشايخ قريش ممن قد مات . فأسلم بعد ، فحسن إسلامه - فنزلت توبته في هذه الآية (وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلُوا) .

قال الحافظ ابن حجر : لىكن نفى عائشة أن تكون نزلت في عبد الرحمن وآل بيته ، أصح إسناداً وأولى بالقبول . وذلك ما رواه البخارى^(١) والإسماعيل والنسائى وأبو يعلى : أن مروان

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٦ - سورة الأحقاف ، ١ - باب والذي

قال لوالديه ، حديث رقم ٢٠٤٣ ، عن عائشة .

كان عاملاً على المدينة ، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد ، فكتب إلى مروان بذلك ، فجمع مروان الناس فخطبهم ، فذكر يزيد ، ودعا إلى بيعته وقال : إن الله أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه ، فقد استخلف أبو بكر وعمر . فقال عبد الرحمن : ما هي إلهرقلية ! فقال مروان : سنة أبي بكر وعمر . فقال عبد الرحمن : هرقلية ! إن أبا بكر ، والله ! ما جعلها في أحد من ولده ، ولا في أهل بيته ، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده ! فقال مروان : خذوه . فدخل بيت عائشة ، فلم يقدرُوا عليه . فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه (وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُي أَفَ لَكُمْ مَا أَتَعِدَا نَبِيَّ) فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري . ولو شئت أن أسمى من نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله لعن أبا مروان ، ومروان في صلبه .

ومما يؤيده أن (الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) هم المخلدون في النار في علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . وحاول بعضهم عدم التنافي بأن يقع منه ذلك قبل إسلامه ، ثم يسلم بعد ذلك . ومعلوم أن الإسلام يجب ما قبله ، وأن معنى الوعيد في الآية إنما هو للمصرين عليه الذين لم يقلعوا ، لكثرة ما ورد في العفو عن التائبين . وقد نزل من الوعيد الشديد في أول البعثة آيات لا تحصى ، وكلها تنفع على من كان مشركاً آثماً ، ولم يقل أحد بشمولها لهم بعد إيمانهم ، أو أن فيها ما يحط من أقدارهم ، ويجعلها مغمراً لهم ، إلا أن مروان لم يجد لمقاومة ما ألقمه إلا الشغب ، وشغل الناس عن باطله بنعمة يطرب لها الجهلة ، وقاله يلو كها الرعاع ، وهم الذين يهملهم أمرهم . ويرحم الله عبد الرحمن ! فقد شفى الغلة ، وصدع بالحق ، في حين أن لظهير له ولا نصير - والله أعلم - .

قال ابن قتيبة في (المعارف) : أربعة رأوا رسول الله ﷺ في نسق : أبو قحافة ، وابنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وابنه محمد بن عبد الرحمن . وقال أيضاً : قيل : كان عبد الرحمن من أفضل قريش ، ويكنى أبا محمد ، وله عقب بالمدينة ،

وليسوا بالكثير ، مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبلٍ يقرب من مكة ، فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه . انتهى .

وفي دمشق في مقبرة باب الفراديس ، المسماة بالدحداح ، مزار يقال إنه عبد الرحمن بن أبي بكر، نسب إليه زورًا. وما أكثر المزارات في المزارات ، كما يعلمه من دقق في الوفيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ » أى يقال لهم أذهبتم « طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » عطف تفسير لقوله (أَذْهَبْتُمْ) أى فما بقى لكم من اللذائذ شئ لا ستيفائكم إياها « فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » أى الهوان « بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى بغير ما أباح لكم وأذن « وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » أى عن طاعته ، فأبعدكم عن كرامته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَأَذْكُرُ أَخَاعَادٍ إِذْ أَنْذَرْتُ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« وَأَذْكُرُ أَخَاعَادٍ » يعنى هودًا « إِذْ أَنْذَرْتُ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ » جمع حقف ، وهو الرمل المستطيل المرتفع . قال قتادة : ذكر لنا أن عادًا كانوا حيًّا باليمن ، أهل رمل ، مشرفين على البحر . « وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » أى : وقد مضت الرسل بإنذار أممها قبله وبعده ، متفقين على « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » أى لا تشرکوا مع الله شيئًا

في عبادتكم إياه. وقال كل واحد منهم عليه السلام « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى من عبادة غير الله « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى بمقدار هتكهم ، عذاب الله بالشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[٢٣] (قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

« قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى لتصرفنا « عَنْ إِلَهِتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى من العذاب على عبادتنا إياها « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » أى فى وعدك أنه آت لاحالة . « قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ » أى إنى وإن علمت إتيانه قطعاً، فلا أعلم وقت مجيئه، لأن العلم بوقته عنده تعالى، فيأتيكم به فى وقته الذى قدره له « وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ » وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » . قال الطبرى^(١) : أى مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المضرة بعبادتكم غير الله ، وفى استعجال عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مِّمَّنْ طَرَفُنَا ،

بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٥] (تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ،

كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ » أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

فأوه عارضاً في ناحية من نواحي السماء، متجهاً نحو مزارعهم « قَالُوا هَذَا عَارِضٌ » أي سحاب عارض « مُمِطِرُنَا » أي بغيث نحيا به « بَلْ هُوَ » أي قال هود بل هو « مَا أَسْتَعْجِلْتُمْ بِهِ » أي من العذاب « رِيحٌ » أي هي ريح . أو بدل من (ما) ، « فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمِرُ » أي تهلك « كُلَّ شَيْءٍ » أي من أموالهم وأنفسهم « بِأَمْرِ رَبِّهَا » أي إذنه الذي لا يعارض، فلم تدفع عنهم آلتهم ، بل دمرتهم « فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ » أي بيوتهم . ثم أشار إلى أن هذا لا يقتصر على عاد ، بل ينتظر لمن كان على شاكلة من أهل مكة وغيرها ، بقوله « كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » أي الكافرين إذا تمادوا في غيهم ، وطمعوا على ربهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَآبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا آبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) (وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ) أي مكنا عاداً ، وآتيناهم من كثرة الأموال ، وقوة الأجسام ، فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا . على أن (إِنْ) نافية ، أو ثرت على (ما) لثلاث توجب شبه التكرير الثقيل . وقيل (إِنْ) شرطية محذوفة الجواب . والتقدير : ولقد مكناهم في الذي ، أو في شيء ، إِنْ مكناكم فيه كان بغيكم أكثر . وقيل : هي صلة كما في قوله (١) .

يَرْجَى الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَيَعْرِضُ دُونَ أَذْنَاهُ الْخَطُوبُ

(١) البيت من شواهد الكشف ، قاله إياس بن الأرت . وقبله .

= فَإِنْ أُمْسِكَ فَإِنَّ الْعَيْشَ حُلُوٌّ إِلَى كَأَنَّهُ عَسَلٌ مَشُوبٌ

قال الزمخشري : والوجه هو الأول. ولقد جاء عليه في غير آية في القرآن^(١) (هُم أَحْسَنُ أَنْثًا وَرِئَاءًا)^(٢) (كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا) وهو أبلغ في التوبيخ ، وأدخل في الحث على الاعتبار .

قال الناصر : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى^(٣) (وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) وقوله^(٤) (مَكَتَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ) أى : والأصل توافق المعاني في الآي الواردة في نبأ واحد، على مافيه أيضاً من سلامة الحذف والزيادة .

« وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً » قال الطبري^(٥) : أى جعلنا لهم سمعاً يسمعون به مواعظ ربهم ، وأبصاراً يبصرون بها حجج الله ، وأفئدة يعقلون بها ما يضرهم وينفعهم ، « فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ » أى لأنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، بل في خلافه « إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى من العذاب .

قال الطبري^(٦) : وهذا وعيد من الله عز وجل ثناؤه ، لقريش . يقول لهم : فاحذروا أن

= وبعده :

وما يدرى الحريصُ علامَ يلقى شرَّ شرِّه ، أيخطئ أم يصيب
ومعنى البيت : أن الإنسان تمتد أطباعه إلى الأمور المغيبة التي لا يراها ، ويعترض الموت عندها ، أو يعترض دون أقربها عنده حصولا ، الأمور الشديدة التي تقطع رجاءه ، فما ظنك بأبعد الأشياء ؟ ! .

(١) [١٩ / مريم / ٧٤] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٢] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٤) [٦ / الأنعام / ٦] .

(٥) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٦) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

يحل بكم من العذاب على كفركم بالله، وتكذيبكم رسله ، ماحل بعاد ، وبادروا بالتوبة قبل العقمة .
لطيفة :

قال الشهاب : أفرد السمع في النظم ، وجمع غيره ، لاتحاد المدرك به ، وهو الأصوات ،
وتعددت مدركات غيره ، ولأنه في الأصل مصدر ، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)
« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ » أى ما حول قريتهكم يا أهل مكة « مِّنَ الْقُرَىٰ » أى
كحجر ثمود ، وأرض سدوم ومأرب ونحوها ، فأنذرنا أهلها بالمثلات ، وخربنا ديارها ،
فجعلناها خاوية على عروشها « وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ » أى وعظناهم بأنواع العظات ، وبيّنا لهم
ضروباً من الحجج « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن الكفر بالله ورسله . قال الطبري :
وفي الكلام متروك ، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه ، وهو : فأبوا إلا الإقامة
على كفرهم ، والتماذى على غيرهم ، فأهلكناهم ، فلم ينصروهم منا ناصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَٰهَةً ، بَلَىٰ ضَلُّوا عَنْهُمْ
وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَٰهَةً » أى : فهلا نصر
هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم ، أو ثنائهم التي اتخذوا عبادتها قرباناً
يتقربون بها ، فيما زعموا ، إلى ربهم إذ جاءهم بأسنا ، فتمنقذهم من عذابنا ، إن كانت تشفع لهم
عند ربهم ، كما قالوا^(١) (هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ) .

(١) [١٠ / يونس / ١٨] .

« بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ » أى غابوا عن نصرهم ، وامتنع أن يستمدوا بهم ، امتناع الاستمداد بالضالّ فى (ضلُّوا) استعارة تبعية « وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ » أى ضياع آلهتهم عنهم ، وامتناع نصرهم إثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة . « وَمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ » أى واثق افتراءهم فى أنها شفعاؤهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ)

[٣٠] (قَالُوا يَتَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[٣١] (يَتَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّن عَذَابِ أَلِيمٍ)

[٣٢] (وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ » أى أملفاهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك « يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا » أى ليتم التدبر والتفكير « فَلَمَّا قُضِيَ » أى فرغ من قراءته ، كمل تأثرهم به ، فأرادوا التأثير به ، لذلك « وَلَّوْا » أى رجعوا « إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ » أى عما هم فيه من الضلال . « قَالُوا يَتَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ » أى المتفق على تعظيم كتابه . أى وقد علمنا صدقه لكونه « مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من هذه الكتب كلها ، وقد فضل عليها إذ « يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ » أى معرفة الحقائق « وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى لا عوج فيه ، وهو الإسلام .

قال ابن كثير: أى يهـدى إلى الحق فى الاعتقاد والأخبار، وإلى طريق مستقيم فى الأعمال. فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب . نخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى^(١) (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وقال تعالى^(٢) (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) فالهدى هو العلم النافع ، ودين الحق هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن: يهـدى إلى الحق فى الاعتقادات ، وإلى طريق مستقيم ، أى فى العمليات .

«يَقُولُونَ مَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ» أى رسول الله محمدًا إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله، «وَأَمِنُوا بِهِ» يغفر لكم من ذنوبكم ويخرجكم من عذاب أليم * «وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ» أى بمعجز ربه، بهربه إذا أراد تعالى عقوبته، لأنه فى قبضته وسلطانه، أتى اتجه . «وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ» أى نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه . «أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أى أخذ على غير استقامة .

تنبيهات :

الأول - روى الإمام مسلم^(٣) عن علقمة قال : سألت ابن مسعود رضى الله عنه : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه ، فالتسناه فى الأودية والشعاب ، فقليل : استطير ، اغتيل ! قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء . قال : فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن . قال ، فانطلق بنا ، فأرانا آثامهم .

وروى الإمام أحمد^(٤) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان الجن يستمعون الوحي ،

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٣٣] .

(٣) أخرجه فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٥٠ (طبعنا) .

(٤) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٤ فى الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٤٨٢

فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشرًا . فيكون ما سمعوا حقًا ، وما زادوا باطلاً . وكانت النجوم لا يرى بها قبل ذلك . فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رُمي بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبث جنوده ، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض . ورواه الترمذی^(١) والنسائي في كتابي التفسير من سننهما . وهكذا قال الحسن البصري : إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم . وذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبي ﷺ إلى الطائف ، ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها ، ثم قال : فلما انصرف عنهم ، بات بنخلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن ، فاستمعه الجن من أهل نصيبين . قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولكن قوله (إن الجن كان استماعهم تلك الليلة) فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء ، كما دلّ عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما المذكور . وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين ، كما قرره ابن إسحاق وغيره .

وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن يبطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، فأنزل الله عز وجل عليه^(٢) (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ) الآية . قال ابن كثير : فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالًا : قومًا بعد قوم ، وفوجًا بعد فوج .

(١) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٧٢ ، سورة الجن .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

فأما ما رواه البخاري ومسلم^(١) جميعاً عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي يقول : سألت مسروقاً : من آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني أبوك - يعنى ابن مسعود رضى الله عنه - أنه آذنته بهم شجرة ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضى الله عنهما ، ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أى أعلمته باجتماعهم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات والله أعلم .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذى حكاه ابن عباس رضى الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ، ولم يره . ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن ، فقرأ ، عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل - كما رواه ابن مسعود رضى الله عنه - .

ثم قال ابن كثير : وأما ابن مسعود رضى الله عنه ، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ، ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا ، لم يشهد حال المخاطبة . هذه طريقة البيهقي . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم ، لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام مسلم . ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى - والله أعلم - كما روى ابن أبي حاتم فى تفسيره (قل أوحى إلى) من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عمر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فجنّ نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة ، فجنّ نصيبين . وتأول البيهقي قوله (فبتنا بشر ليلة) على غير ابن مسعود ، ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن ، وهو محتمل ، على بُعد

(١) أخرجه البخاري فى : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٣٢ - باب ذكر الجن

وقول الله تعالى : قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، الحديث رقم ١٨١٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٤ - كتاب الصلاة حديث رقم ١٥٣ (طبعنا) .

وبالجملة ، فقد روى ما يدل على تكرار ذلك . وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولاً من وجه جيد عند ابن جرير^(١) في هذه الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم ، فهذا يدل على أنه قدرى القصتين . وذكر أبو حمزة الثمالي أن هذا الحى من الجن كانوا أكثر الجن عدداً ، وأشرفهم نسباً . وعن ابن مسعود أنهم كانوا تسعة . وروى أنهم كانوا خمسة عشر ، وروى ستين ، وروى ثلاثمائة . وعن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً . قال ابن كثير : فلمل هذا الاختلاف دليل على تكرار وفادتهم عليه ﷺ . ومما يدل على ذلك ما رواه البخارى^(٢) في صحيحه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعت عمر رضى الله عنه لشيء قط يقول : إني لأظنه هكذا ، إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مرّ به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظنى ، أو إن هذا على دينه فى الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم . على الرجل . فدعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كالיום استقبل به رجل مسلم . قال : فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى ! قال كنت كاهنهم فى الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا يوماً فى السوق ، جاءتني أعرف فيها الفزع ، فقالت : ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها ؟ قال عمر : صدق ! بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبجه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : يا جليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . قال ، فوثب القوم . فقلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا . ثم نادى : يا جليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . ففمت ، فما نشبنا أن قيل : هذا نبى - هذا سياق البخارى - وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب بنحوه . ثم قال : وظاهر هذه الرواية يوم أن عمر رضى الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل

(١) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه فى ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٣٥ - باب إسلام عمر بن الخطاب

رضى الله عنه ، حديث ١٨١٣ .

الذى ذبح . وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضى الله عنه . وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه - والله أعلم - .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب . قال البيهقي : وسواد بن قارب يشبه أن يكون هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح . ثم روى بسنده عن البراء قال : بينما عمر ابن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس ! أفياكم سواد بن قارب ؟ قال ، فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس ! أفياكم سواد بن قارب ؟ قال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! وما سواد بن قارب ؟ قال ، فقال له عمر : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً ! قال : فبينما نحن كذلك ، إذ طلع سواد بن قارب . قال ، فقال له عمر : يا سواد ! حدثنا ببداية إسلامك كيف كان . قال سواد : فإني كنت نازلاً بالهند ، وكان لى ربي من الجن . قال ، فبينما أنا ذات ليلة نائم إذا جاءني في منامى ذلك ، قال : قم فافهم ، واعقل إن كنت تعقل ! قد بعث رسول من لؤى بن غالب ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَحَسَّاسِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَخْلَاسِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى مَا خَيْرُ الْجَنِّ كَأَنْجَاسِهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِينِيكَ إِلَى رَاسِهَا

قال : ثم أنبئني فأفزعني وقال : يا سواد بن قارب ! إن الله عز وجل بعث نبياً ، فانهض إليه تهتدي وترشد . فلما كان من الليلة الثانية ، أتاني فأنبئني ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَطَلَّاسِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَقْتَابِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى وَلَيْسَ قُدَمَاهَا كَأَذْنَابِهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِينِيكَ إِلَى قَابِهَا

فلما كان في الليلة الثالثة ، أتاني فأنبئني ، ثم قال :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَخْبَارِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَكْوَارِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى لَيْسَ ذَوُ الشَّرِّ كَأَخْيَارِهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ مَا مُؤْمِنُو الْجَنِّ كَكُفَّارِهَا

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة ، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ماشاء الله . قال : فانطلقت إلى رحلي ، فشددته على راحلتي ، فما حلت نسمة ، ولا عقدت أخرى ، حتى أتيت رسول الله ﷺ ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رآني النبي ﷺ قال : مرحباً بك ياسواد بن قارب ، قد علمنا ما جاء بك . قال : قلت : يا رسول الله ! قد قلت شعراً ، فاسمعه مني ! قال صلى الله عليه وسلم : قل ياسواد ، فقلت :

أَتَأْنِي رَيْسِي بَعْدَ لَيْلٍ وَهَجْمَةٍ	ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذِبٍ
ثَلَاثَ لَيَالٍ ، قَوْلُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ :	أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤَيٍّ بَنٍ غَالِبٍ
فَشَمَرْتُ عَنْ سَاقِي الْإِزَارِ وَوَسَّطْتُ	بِى الدَّعْلِبُ الْوَجْنَاءُ بَيْنَ السَّبَاسِبِ
فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ	وَأَنَّكَ مُأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ
وَأَنَّكَ أَدْنَى الْمُرْسَلِينَ وَسَيْلَةٍ	إِلَى اللَّهِ ، يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطَايِبِ
فَرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ	وَإِنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبُ الذَّوَائِبِ
وَكَنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لَذُو شَفَاعَةٍ	سَوَاكَ بَعْضُنِ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ

قال : فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال لى : أفلحت ياسواد ! فقال له عمر رضى الله عنه : هل يأتيك رئيك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتني ، ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن . ثم أسفده البيهقي من وجهين آخرين . انتهى ^(١) كلام ابن كثير . وقد ساقه الإمام الماوردي في (أعلام النبوة) مع نظائر له ، في الباب السادس عشر ، في هتوف الجن ، ثم قال : ولئن كانت هذه الهتوف أخباراً آحاد ، عمن لا يرى شخصه ، ولا يحج قوله ، فنخروجه عن العادة نذير ، وتأثيره في النفوس بشير ، وقد قبلها السامعون . وقبلوا الأخبار يؤكد صحتها ، ويؤيد حجتها . فإن قيل : إن كانت هتوف الجن من دلائل النبوة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع (طبعة ١٩٣٧) .

جاز أن تكون دليلاً على صحة السكّهانة ، فعنه جوابان :

أحدها : أن دلائل النبوة غيرّها ، وإنما هي من البشائر بها ، وفرق بين الدلالة والبشارة إخباراً .

والثاني : أن السكّهانة عن مغيب ، والبشارة عن معين ، فالعيان معلوم ، والغائب موهوم . انتهى .

التنبيه الثاني :

قال الماوردي : في صرف الجن المذكور في قوله تعالى (١) (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) وجهان :

أحدهما - أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء ، برجوم الشهب ، ولم يصرفوا عنه بعد عيسى إلا بعد بعث رسول الله ﷺ فقالوا : ما هذا الحادث في السماء ، إلا الحادث في الأرض ، وتحيلوا به تجديد النبوة ، فجابوا الأرض ، حتى وقفوا على رسول الله ﷺ بيطن مكة عامداً إلى عكاظ ، وهو يصلي الفجر ، فاستمعوا القرآن ، ورأوه كيف يصلي ويقتدى به أصحابه ، فعلموا أنه لهذا الحادث ، صرفوا عن استراق السمع برجوم الشهب . وهذا قول ابن عباس رضي الله تعالى عنه .

أقول : وعليه فتكون (إلى) في (إليك) بمعنى لام التعليل . وذكر في (الغنى) أنها تأتي مرادفة اللام ، نحو (٢) (والأمر إليك) . وفيه تكلف وبعُد ، لنبوة عما يقتضيه سياق بقية الآية .

ثم قال الماوردي : وحكي عكرمة أن السورة التي كان يقرؤها (٣) (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) .

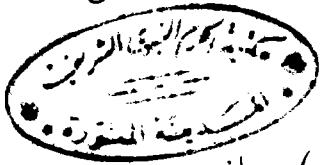
أقول : سيأتي مرفوعاً عن جابر أنها سورة الرحمن .

ثم قال الماوردي :

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] . (٢) [٢٧ / النمل / ٣٣] . (٣) [٩٦ / العلق / ١] .

والوجه الثاني - أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق ، هداية من الله تعالى ، حتى أتوا بني الله بطن نخلة ، فنزل عليه جبريل بهذه الآية ، وأخبره بوفود الجن ، وأمره بالخروج إليهم ، فخرج ومعه ابن مسعود ، حتى جاء الحجون . قال ابن مسعود : نخط على خطأ وقال : لا تبأوزه .

فعلى الوجه الأول ، لم يعلم بهم حتى أتوه . وعلى الوجه الثاني ، أعلمه جبريل قبل إتيانهم . واختلف أهل العلم في رؤيته لهم ، وقراءته عليهم . فحكى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لم يره ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما سمعوا قراءته حين مروا به مصلياً . وحكى ابن مسعود أنه رآهم ، وقرأ عليهم القرآن . أقول : تقدم لابن كثير ما فيه كفاية .



ثم قال الماوردي : وفي قوله ^(١) (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا) وجهان : أحدهما - فلما حضروا قراءته القرآن قالوا : أنصتوا لسماعه .

والوجه الثاني : فلما حضروا رسول الله ﷺ قالوا : أنصتوا لسماع قوله . انتهى .

قال ابن كثير : وهذا - أي قولهم أنصتوا - أدب منهم . وقد روى البيهقي عن جابر قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال : مالي أراكم سكوتاً ؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً . ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة (فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمْ أَنْ تُكَذِّبُوا) إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد . ورواه الترمذي ^(٢) وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير .

الثالث - دل قوله تعالى ^(٣) (يَتَقَوَّمَنَّا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ) على أن رسول الله ﷺ كان

عام الرسالة إلى الإنس والجن .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٥ - سورة الرحمن ، باب حدثنا عبد الرحمن

ابن واقد . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣١] .

قال ابن كثير : لأنه دعا الجن إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة الرحمن ، ولهذا قال (أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ) .

قال الماوردي : لم يختلف أهل العلم أنه يجوز أن يبعث إليهم رسولاً من الإنس ، واختلفوا في جواز بعثة رسول منهم ، فجوز قوم لقول الله تعالى ^(١) (يَمْعَشِرَ الْإِنِجْنَ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) ومنع آخرون منه . وهذا قول من جعلهم من ولد إبليس ، وحملوا قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) على الذين لما سمعوا القرآن ، ولّوا إلى قومهم منذرين . انتهى .
أقول : ونظيره تسمية رسل عيسى عليه السلام رسلاً في آية ^(٢) (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) .

الرابع - استدلل بقوله (يَغْفِرُ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِزُّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة . إذ لو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا ، لأوشك أن يذكروه .
قال الماوردي : فأما كفارهم فيدخلون النار ، وأما مؤمنوهم ، فقد اختلفوا في دخولهم الجنة ثواباً على إيمانهم . فقال الضحاك : ومن جوز أن يكون رسلهم منهم ، يدخلون الجنة . وحكى سفيان عن ليث أنهم يثابون على الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصاً منها ، ثم يقال لهم : كونوا تراباً كالبهائم . انتهى .

والحق - كما قال ابن كثير - أن مؤمنهم كؤ من الإنس ، يدخلون الجنة ، كما هو مذهب جماعة من السلف . وقد استدلل بعضهم لهذا بقوله عز وجل ^(٣) (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا ^(٤) (وَلَمْ يَخَفْ مَقَامَ

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . (٢) [٣٦ / يس / ١٤] .

(٣) [٥٥ / الرحمن / ٧٤ و ٥٦] . (٤) [٥٥ / ٤٦ و ٤٧] .

رَبِّهِ جَنَّتَانِ * قَبَائِءَ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ (فقد امتنَّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة . وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس ، فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . فلم يكن تعالى ليمتنَّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم . وأيضاً ، فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فَلَأَن يجازى مؤمنهم بالجنة ، وهو مقام فضل ، بطريق الأولى والأخرى . ومما يدل أيضاً على عموم ذلك قوله تعالى (١) « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » وما أشبه ذلك من الآيات . وما ذكره ههنا من الجزاء على الإيمان ، من تكفير الذنوب ، والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار . فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع ، أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم . وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه (٢) « يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة ، فكذلك هؤلاء . وقد حكى فيهم أقوال غريبة . فعن عمر بن العزيز أنهم لا يدخلون بمحوجة الجنة ، وإنما يكونون فى ربضها وحولها وفى أرجائها . ومن الناس من زعم أنهم فى الجنة يراهم بنو آدم ، ولا يرون بنى آدم بعكس ما كانوا عليه فى الدار الدنيا . ومن الناس من قال : لا يأتى كلون فى الجنة ولا يشربون ، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس ، عوضاً عن الطعام والشراب ، كالملائكة ، لأنهم من جنسهم . وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها . انتهى .

الخامس - قيل : سر التبعض فى قوله (مِّنْ ذُنُوبِكُمْ) أن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان ، كذنوب المظالم ، أى : حقوق العباد . وفيه نظر ، لأن الحربى لو نهب الأموال المصونة ، وسفك الدماء المحقونة ، ثم حسن إسلامه ، جب الإسلام عنه إثم ما تقدم ، بلا إشكال .

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٧] . (٢) [٧١ / نوح / ٤] .

ويقال : إنه ما وعدُ المغفرة للكافر على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى إلا مبعضة، والسرفيه أن مقام الكافر قبض لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجأؤه كما في حق المؤمن - أفاده الناصر - .
السادس - قال ابن كثير: جمعوا في دعواهم قومهم بين الترغيب والترهيب ، ولهذا نجح في كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً ، كما تقدم بيانه .

السابع - قال الماوردي : الجن من العالم الناطق المميز ، يأكلون ويتناكحون ويتناسلون ويموتون ، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار ، وإن تميزوا بأفعال وآثار ، إلا أن الله يخص برؤيتهم من يشاء . وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية ، وما تحيلوه من آثارهم الخفية . وقال القاشاني : الجن نفوس أرضية تجسدت في أبدان لطيفة مركبة من لطائف العناصر ، سماها حكماء الفرس (الصور المعلقة) . ولكونها أرضية متجسدة في أبدان عنصرية ، ومشاركتها الإنس في ذلك ، سميا (ثقلين) . وكما أمكن الناس التهدي بالقرآن أمكنهم . وحكاياتهم من المحققين وغيرهم أكثر من أن يمكن رد الجميع ، وأوضح من أن يقبل التأويل . انتهى .
 القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّ بِخَلْقِهِنَّ

بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُخْصِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدْرِ عَلَى

أَنْ يُخْصِيَ الْمَوْتَى » أي بإعادة الروح إلى الجسد ، بعد مفارقتها إياه ، وإخراجهم من قبورهم كما يأتيهم قبل وفاتهم .

وفي ابن جرير ^(١) بحث نحوي في دخول الباء في (بِقَدْرِ) بديعٌ . وبذكر في مباحث

زيادة الباء ، في مطولات العربية .

« بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أي من إعادة المدوم ، ولو فني الجسد وغيره .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

[٣٥] (فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ، بَلَّغُوا فَعَلَّ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا » أى الإحياء إحياء « بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَأَصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة وتكذيبهم وإيذائهم « كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » أى : أولو الثبات والجد منهم ، فإنك منهم . والعزم - فى اللغة - كالعزيمة ، ما عقدت قلبك عليه من أمر . والعزم أيضاً القوة على الشئ والصبر عليه . فالمراد به هنا المجتهدون ، المجدون ، أو الصابرون على أمر الله فيما عهده إليهم ، وقدره وقضاه عليهم . ومطلق الجد والجهد والصبر موجود فى جميع الرسل ، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكثير من الأولياء . فلذا ذهب جمهور المفسرين فى هذه الآية إلى أنهم جميع الرسل ، وأن (من) ببيانها لاتبعيضية ، فكل رسول من أولى العزم . فإن أريد به معنى مخصوص ببعضهم ، فلا بد من بيانه ليظهر وجه التخصيص . ومنشأ الاختلاف فى عددهم إلى أقوال : أحدها - أنهم جميع الرسل . والثانى - أنهم أربعة : نوح وإبراهيم وموسى ومحمد . والثالث - أنهم خمسة بزيادة عيسى ، كما قيل :

أولى العزم نوحٌ والخليلُ المجدُّ وموسى وعيسى والنبيُّ محمدٌ
والرابع - أنهم ستة ، بزيادة هرون أو داود . والخامس - أنهم سبعة بزيادة آدم .
والسادس - أنهم تسعة ، بزيادة إسحاق ويعقوب ويوسف . وقد يزداد وينقص .

وتوجيهه التخصيص أن المراد بهم من له جد وجهد تام في دعوته إلى الحق ، وذبه عن حريم التوحيد ، وحى الشريعة ، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النفسية والبدنية ، وأموره الخارجية ، كمبارزة كل أهل عصره ، كما كان لنوح . أو ملك جبار في عصره ، وانتصاره عليه من غير عدة دنيوية ، كمنروذ إبراهيم ، وجلوت داود ، وفرعون موسى . ولكل موسى فرعون ، ولكل محمد أبو جهل . وكلا ابتلاء بأمور لا يصبر عليها البشر بدون قوة قدسية ، ونفس ربانية ، كما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام . ومن هنا كشف برقع الخفاء عن وجه التخصيص ، وهذا مما كشفت بركاتهم سره - أفاده الشهاب - .

« وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ » أى ولا تستعجل بمساء لتك ربك العذاب لهم ، فإن ذلك نازل بهم لا محالة ، وإن اشتد عليك الأمر من جهتهم . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ » أى من عذاب الله ونكاله وخزيه الذى ينزل بهم فى الدنيا أوفى الآخرة « لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً » مِنْ نَهَارٍ » أى لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذابه ، قدر ما كانوا فى الدنيا لبثوا ، ومبلغ ما فيها مكثوا .

وقوله تعالى « بَلِّغْ » قال ابن جرير^(١) : فيه وجهان :

أحدهما - أن يكون معناه : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، ذلك لبث بلاغ ، بمعنى : ذلك بلاغ لهم فى الدنيا إلى أجلهم ، ثم حذف (ذلك لبث) ، وهى مرادة فى الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها .

والآخر - أن يكون معناه : هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية ، إن فكروا واعتبروا ، فتذكروا . انتهى .

وأشار المهايى إلى معنى آخر فقال : ليس من حق الرسل الاستعجال ، بل حقهم بلاغ . « فَهَلْ يُهْلِكَ » أن بعذاب الله إذا أنزله بمقتضى العدل والحكمة « إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » أى الذين خالفوا أمره ، وخرجوا من طاعته . نعوذ بالله من غضبه ، وأليم عقابه .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .